# القرية فضاء وطن ومعتركُ إيديولوجيا

## في رواية "الملحمة" لعبد الملك مرتاض

# The village is a space of a homeland and an ideological battlefield

## in s novel"The Epic" Abdel-Malek Mortad

د. فاطمة الزهرة ناضر *،

جامعة: حسيبة بن بوعلي الشلف/الجزائر ،

NADHARFATIMA@GMAIL.COM

تاريخ الاستلام: 2021.05.17

تاريخ القبول: 2021.08.22

تاريخ النشر: 2021.11.06

Ex PROFESSO

المجلد06 ، عدد خاص، السنة2021

***الملخص:***

اهتمّ الروائيون العرب بتوظيف القرية في أعمالهم الأدبيّة، وهذا نظرًا لغناها بالدلالات الإيحائيّة والرموز، وتعدد مضامينها فجعلوها مسرحًا لأحداث رواياتهم، فهي بالنسبة لهم تمثل عالمهم الرومانسي والفنيّ الذي يعكس رؤاهم وتجربتهم الإبداعيّة المعاصرة.

لذا نجد عبد الملك مرتاض وظفها في روايته "الملحمة" واتخذ منها المكان الحلم، وجعلها رمزًا للوطن وبؤرة مكانيّة للسقوط والتحول، وحاضنة لاستقبال شخصيات قصته تحتضن الاستدمار بكلّ أنواعه، حيث تتوالى فيها البنيات الدلاليّة لتشكل لنا صورة فنيّة تعكس رؤاه ونظرته الإبداعيّة، متخطيًّا بذلك طبيعتها المكانيّة عن طريق تحويلها إلى مكان فنيّ شاعريّ يعكس الحياة بكلّ أبعادها الواقعيّة والإيحائيّة.

وبما أنّ القرية مكان مفتوح يتسمّ بالتغير والتحول، ينفتح فضاؤها على العوالم الأسطوريّة، فإنّنا حاولنا الولوج إلى بنية المتخيل السردي واستنطاق بناها الدلاليّة والرمزيّة، واستكناه عناصرها الفنيّة والجماليّة.

**الكلمات المفتاحية:** عبد الملك مرتاض; المكان ;القرية ; الملحمة; الرواية.

***Abstract:***

Arab novelists have been interested in employing the village in their literary works, because of its richness in connotations and suggestive symbols, as they made it a stage for the events of their novels, and reflects their visions and contemporary creative experience.

Therefore, we find Abd al-Malik an apostate in his novel "The Epic", making it a symbol of the homeland, a spatial center for change and transformation, an incubator for receiving the characters of his story, and a central place for containing the occupation.

Since the Since the village is an open place characterized by change and transformation, and open to mythical worlds, we tried to study its semantic and symbolic structures. And learn about its technical and aesthetic elements.

***Keywords :*** Abd al-Malik Murtad ; Place ; village ; Epic ; the novel

**Url de la revue :**

*https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/484*

* -المؤلف المراسل.

**مقدّمة:**

يعدّ المكان عنصرًا فاعلاً في تشكل الفنّ الروائيّ، وهذا لما له من أهميّة في تأطير بنيّة الخطاب السرديّ وتنظيم الأحداث إنّه الحاضنة الأولى والإطار العام الذي يستوعب الشخصيات والزمان والرؤى ويحدد وظائفها المتباينة، فهو «ملعب الأحداث والشخصيات الروائيّة، وكلّما أُجيد بناؤه وتجهيزه، استطاعت الأحداث والشخصيات أن تؤدي دورها بشكل أفضل، وتبرز مهارتها بشكل أكمل»[1] فبدونه لن تكتمل الشخصيات والزمان، ويستحيل تطور الأحداث عبر خطيّة السرد.

وقد اعتمد عليه عبد الملك مرتاض في هيكلة بنية روايته " الملحمة" وهندستها الدراميّة، واختار "القرية" كبؤرة مكانيّة لاحتلال المكان، وعاملًا أساسيًا في تطوير الأحداث والوقائع وتسريعها باعتبارها فضاءً مفتوحًا ينبض بالخضوع والضعف والاستكانة، تحتضن الهدوء والسكينة والبساطة تماشيًا مع بنيتها الهيكليّة، لذا سنحاول من خلال هذه الدراسة استنطاق بُناها الدلاليّة والرمزية، وذلك عن طريق طرح الإشكاليات التاليّة:

- ما البعد الدلاليّ والإيحائي الذي أضفاه عبد الملك مرتاض على تيمة "القرية " في رواية
" الملحمة "؟
- وكيف تمّ توظيفها داخل بنية الخطاب السرديّ للرواية؟

فضلاً عن الطبيعة المعرفيَّة لخطاب هذه الإشكاليَّة، آثرنا أن نعتمد في هذا البحث مقاربةً دلاليّةً تسترفد بفواعل السيميائيَّة السرديَّة طورًا، وبالإجراء النقديّ؛ النسقيّ والسياقيّ، أطوارًا أخرى، بغية الكشف عن الآليّة التي تشتغل وفقها تيمة "القرية"داخل بنيّة " الملحمة "وذلك عن طريق استكناه عناصرها الفنيّة والجماليَّة، وفكّ شفراتها، واكتشاف دلالاتها الرمزيّة.

## I. المكان لغة ومفهومًا (اصطلاحًا):

1. **لغة:** يعدّ لسان العرب لابن المنظور من أبرز المعاجم التي تعرضت بالتفصيل لصيغة المكان، وقد أورد في كتابه أنّ «المكان والمكانة واحد المكان في الأصل تقدير الفعل مفعل، لأنّه موضع لكينونة الشيء فيه والدليل على أنّه المكان مفعل هو أنّ العرب لا تقول في معنى هو مبني مكان كذا وكذا إلّا مفعل والجمع أمكنة وأماكن جمع الجمع»[2].

مكن ← فعل ← الجمع ← أمكنة ← أقذلة

مكان ← مفعل ← جمع الجمع ← أماكن ← منائر

وكذلك كان مذهب الأزهريّ والزبيديّ الذي استشهد بقول الليث «المكان اشتقاقه من كان ويكون ولكنّه لما كثر في الكلام صارت الميم كأنّها أصليّة»[31] وهذا لأنّ الميم في المكان أصل كأنّه من التمكن دون الكون، أي أنّ المكان صيغ من الجذر كان:

كان ← يكون ←مكان.

2. **اصطلاحا:**

اختلف النقاد حول مفهوم (المكان) نتيجة لاختلاف الدراسات، وتعدد النظريات والمدارس النقدية واقتربوا من مفهومه، سواء على مستوى التنظير أو التطبيق، ليتخذ بذلك أشكال متعددة أبرزها[4]: **المكان الجغرافيّ** (Espace Géographique): وهو مقابل لمفهوم المكان، ويتولد عن طريق الحكيّ ذاته إنّه المساحة التي يتحرك فيها الأبطال أو يفترض أنّهم يتحركون فيها.

**الفضاء النصيّ** (Espace Textuel): وهو فضاء مكانّي أيضًا، غير أنّه متعلق فقط بالمساحة التي تشغلها الكتابة الروائيّة أو الحكائيّة باعتبارها أحرفًا طباعيّة على مساحة الورق ضمن الأبعاد الثلاثة للكتاب.

**الفضاء الدلاليّ** (Espace Sémantique): يشير إلى الصورة التي تخلقها لغة الحكيّ، وما ينشأ عنها من بعد يرتبط بالدلالة المجازيّة بشكل عام.

**الفضاء منظورًا**: ويشير إلى الطريقة التي يستطيع الروائيّ بواسطته أنْ يهيمن على عالمه الحكائيّ بما فيه من أبطال يتحركون على واجهة تشبه واجهة الخشبة في المسرح.

نستنتج من خلال هذه المفاهيم أنّ الفضاءين الأول والثاني مرتبطان بالمساحة المكانيّة التي يشغلها عالم الحكيّ من حيث هو بنية معماريّة تعكس الواقع، أو تتجسد على الورق، أما الفضاء الدلاليّ: فيشير إلى البعد الإيحائيّ الذي تنتجه لغة الحكيّ عن طريق التعبير غير المباشر، فيما يعدُّ الفضاء الأخير رؤيةً يقدم الكاتب من خلالها عمله المبتكر بطريقة فنيّة تعكس براعته الأدبيّة.

ومن هنا يمكن القول إنّ كلّ هذه الفضاءات يمكن أنْ تتحد مع بعضها البعض على صورة تكامليّة لتشكل لنا الفضاء الروائيّ.

إنّ مفهوم المكان واحد عند النقاد الغربيين يقابله المصطلح الأجنبيّ [Espace/ Space] والذي يعرفه غريماس (Greimas) بأنّه «الشيء المبنيّ، (المحتوى على عناصر متقطعة) انطلاقًا من الامتداد المتصور، على أنّه بعد كامل، ممتلئ، دون أنْ يكون حلًّا لاستمراريّته، ويمكن أنْ يدرس هذا الشيء المبنيّ من وجهة نظر هندسيّة خالصة»[5] إنّه عبارة عن هيكل من العناصر المتقطعة وغير المستمرة منتشرة وفق رؤيّة هندسيّة متميزة.

أما شارل كريفل (Charles Grivel) فيرى أن المكان هو الذي يؤسس المحكيّ لأنّ الحدث في حاجة إلى مكان بقدر حاجته إلى فاعل، وإلى زمن والمكان هو الذي يضفي على التخيل مظهر الحقيقة، أيّ أنّه عنصر فاعل في بنية المحكيّ، وهذا لكونه الخلفيّة التي تعكس الواقع، وتبرز معماريّته[6].

في حين أنّ الناقدة) جوليا كريستيفا) تجعله مرتبطًا بحضارة عصره حيث تسود ثقافة معينة أو رؤية خاصة للعالم وهو ما تسميه ايديوليجم العصر (Idiologéme)، والايديوليجم هو الطابع الثقافّي العام الغالب في عصر من العصور، ولذلك ينبغي للفضاء الروائيّ أن يدرس في تناصيّته أي في علاقته مع النصوص المتعددة لعصر ماأو حقبة تاريخيّة محددة بنص، مركزة على الدلالات الحضاريّة والأبعاد الحضاريّة للمكان وبيئته.[7]

أما الناقد) غاستون باشلار) فقد ركز على القيم الإنسانيّة التي يتسمّ بها المكان، اعتمادًا على فاعليّة الخيال، وقدمه على أنّه متعلق بجوهر العمل الفنيّ «فهو الصورة الفنيّة ذاتها التي يتواصل معها المتلقي، مما يجعله قادرًا على استحضار الصورة المتخيلة لذكريات مكانه الأليف»[8] أيّ أنّه يحمل البعد الإنساني والنفسيّ المتجسد في العمل الفنّي الذي يتجلى من خلال الصورة الفنيّة.

مما سبق نلحظ أنّ مفهوم المكان عند الغربيين اختلف من ناقد إلى آخر، فمنهم من رأى أنّه المساحة المكانيّة التي يشغلها عالم الحكيّ، والعنصر المؤسس لبنيّة المحكيّ، والبعض الآخر رأى أنّ هناك علاقة وطيدة بين الإنسان والمكان، فيما انصبت جهود آخرين على الدلالات الثقافيّة والأبعاد الحضاريّة للمكان.

إنّ المتتبع لمفهوم (المكان) عند العرب* يقف أمام إشكالية تداخل المصطلح وتعدده في الممارسة النقديّة تبعًا لمنظورات استعماله، حيث يذهب الناقد عبد الملك مرتاض إلى توظيف مصطلح (الحيز)مقابلاً لمصطلح الفضاء، بقوله: «لقد خضنا في أمر هذا المفهوم، وأطلقنا عليه مصطلح "الحيز" مقابلا للمصطلحين الفرنسيّ والانجليزيّ [Espace/ Space] (...) ولعلّ أهم ما يمكن إعادة ذكره هنا(...) أنّ مصطلح الفضاء من منظورنا على الأقل، قاصر بالقياس إلى الحيز لأنّ الفضاء من الضرورة أنْ يكون معناه جاريًا في الخواء والفراغ، في حين أنّ الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء، والوزن والثقل، والحجم والشكل ... أما المكان فإنّا نريد وقفه في العمل الروائيّعلى مفهوم الحيز الجغرافّي وحده».[9]

انطلاقًا مما سبق نلحظ أنّ عبد الملك مرتاض ميز بين ثلاث مصطلحات: المكان، الفضاء الحيز ورأى أنّ المصطلح الأنسب للمصطلحين الفرنسيّ والإنجليزيّ [Espace/ Space] هو مصطلح) الحيز) إذ باستطاعته احتواء الحمولة المعرفيّة والمفهوميّة، فيما أنّ"الفضاء"مصطلح

مشغول مفهوميًّا ومعرفيًّا مرتبط بغزو الفضاء «إذ اتخذ في العربيّة الجاريّة مفهوم الجو الخارجيّ الذي يحيط بنا ومن ذلك غزو الفضاء والأبحاث الفضائيّة»[10].

أما الحيز فإنّه عالم غير محدود، أسطوريّ، خياليّ، خرافيّ، مفتوح، مرتبط بشطحات الخيال يحوي الديناميّة الاتجاهيّة، إنّه كلّ فراغ أو حركة أو اتجاه أو بعد أو طول أو عرض أو حجم أيضًا ولكن مما ينشأ عن شطحات الخيال، فكأنّ الحيز عالم لا حدود له، ولكن دون أنْ يتخذ شكل الجغرافيا التي تجسد واقعًا من حيث كونها مكانًا، على حين أنّ الحيز كأنّه عالم أسطوريّ أو خياليّ مفتوح[11].

في حين أنّ المكان يعني الجغرافيا، وهو مصطلح قاصر عكس الحيز الذي يتميز بالشموليّة وهذا ما يدلّ على تعدديّة مصطلح المكان وتشعبه عند النقاد العرب، لكن بوسعنا الاعتراض على عدِّ: الفضاء مصطلحًا مشغولاً دلاليا فقط لأنَّه شائعٌ ذائعٌ ...مكرَّسُ الاستعمال، علمًا أنَّ (تداوليَّة) المصطلح جزء من حمولته المعرفيَّة.

ثمَّ إنَّ منطق (الانشغال الدلالي) غير راجحٍ، وغير سائغٍ في قطاع إنتاج المفاهيم، والمصطلحات إذ كلُّ الكلمات إنَّما هي عرضةٌ لأن تتحوَّل إلى مصطلحات مجرَّد انتسابِها إلى سياقٍ معرفيٍّ مخصوص وحقلٍ قائمٍ من حقول المعرفة.

**2.1.المكان الروائيّ : (ديناميَّة الأفضية السرديَّة في خطاب الملحمة) :**

يعدّ المكان السرديّ «الخلفيّة التي تجري فيها أحداث الرواية، وهو عنصر فاعل في هذه الأحداث بصفته الكيان الإنساني الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان وبيئته، ولذا فإنّ شأنه شأن أيّ نتاج اجتماعيّ آخر يعمل جزءا من أخلاقياته، وأفكار، ووعي ساكنيه»[12]، إذ يكتسب حضوره وفاعليّته عبر بنيّة النص ككيان إنسانّي يحتضن شخص الإنسان بكلّ ما فيه من سلبيات وإيجابيات داخل المجتمع، يحمل رؤاه ومبادئه العقائديّة، فيتحول من «مجرد كونه تجربة معيشة إلى كونه مكانًا فنيًّا ذا طبيعة خاصة في النص»[13]، منزاحًا بذلك عن صورته الحقيقيّة إلى صورة أخرى مبتكرة تتداعى فيها جماليّة المكان المتخيل ذا الصبغة الفنيّة، وذلك باحتضان اللحظة الدراميّة دون سواه حيث يثير المكان «إحساسًا بالمواطنة وإحساسًا آخر بالزمن وبالمحليّة حتى لنحسبه الكيان الذي لايحدث شيء بدونه ،فقد حملّه بعض الروائيين تاريخ بلادهم ومطامع شخوصهم فكان واقعًا ورمزًا»[14] وصقلوه بمجموعة من الخصائص واللمسات، وشحنوه بهويتهم وتطلعاتهم، وجعلوا منه المكان الحلم الذي يحتضن رؤاهم وتجاربهم، ويكشف عن تاريخ وطنهم، حيث يتقاطع مع المكان الحقيقيّ ويلامس الواقع من منظور فنيّ يعكس الحياة وبعدها الإيحائيّ، لتمتد الجسور بذلك بين الواقع والخيال في عالم افتراضيّ مبنيّ على أساس من التخيل المحضّ، إذ يكتسب ملامحه وأهميته، وديمومته عن

طريق الانزياح عن العالم الحقيقيّ، ويجمل بنا أن نستثمر هذه المفاهيم في تجلية الأفضية السرديَّة التي انتعش بِها المناخ الدلاليُّ لخطاب ثلاثيَّة الجزائر:

**2.2.القرية : فضاء وطن ومعتركُ إيديولوجيا :**

تمثل القرية* فضاء مكانيًّا هامًا في النصوص الروائيّة، ومسرحًا لأحداثها، اهتمّ بها الروائيون الجزائريون، وجعلوا منها المكان «الأكثر تعرضًا للقهر والعنف بمختلف أشكاله»[15]،وهذا لاحتضانه مظاهر الجهل والتخلف، فهو في الكثير من المدونات «مكان شبه مغلق معزول، يفتقر لأبسط المرافق لذا يكون إيقاع الحياة فيها سكونّي نمطيّ متكرر، قلما يتسع أو يتغير، أو ينفتح لكنّه يخترق والاختراق هو عنصر الحركة الرئيس الممثل لإمكانيّة إحداث التغيير»[16]، وهذا ما يمارسه عبد الملك مرتاض في "الملحمة" باختراق فضاء القرية الهادئ والآمن، وجعله فضاء للموت، والقهر والنهب والتخريب والسطو، رغم سكونيّة الحياة فيه، طامسًا بذلك معالمها المكانيّة والجغرافيّة، مشكلاً مكانًا منغلقًا على نفسه، رغم انفتاحه، مستسلمًا للسكون خاضعًا للعنف والقهر.

عكس الروايات العربيّة الأخرى التي تتميز «في حفاوتها بالريف ومجتمع القرية بحيث استطاع الروائيّ العربيّ، أن يتخذ من القرية بيئة تتجاوز المألوف مجسدًا النضال الإنسانيّ ضدّ كلّ أشكال.

القهر والحرمان»[17]وجعلها رمزًا للوطن، والتحرر، والنضال ضدّ النظام، والاستبداد، والقهر، والحرمان إنّها تسمو بالإنسان العربّي لتحقيق العدالة والحريّة.

أما في "الملحمة" تحضر "القرية" بصورة سلبيّة، تتلاشى فيها ذات الشخصيات وتضعف أمام قوى الشرّ، مذعنة خاضعة له دون إرادة، وتصبح بذلك مكانًا معرضًا «للعنف تمارس ضدّه الوحشيّة وعلى من يقطنه»[18]، يقدمه النص في صور ومشاهد مكشوفة توغل في الإيحائيّة، وتعري النظام وتجرده من الهيمنة والسيادة.

حيث يقتحم هذا المكان عصابة الوحش الرهيب وخلعائه بحلول الليل وتحت جنح الظلام فيستبيحون «القرية الآمنة بسرعة فائقة، وبطريقة همجيّة. كان أهل القرية يتكونون من الفلاحين وبسطاء الناس. لم تكن قريتهم فرْقة من جيش الملك الجائر لعدم أهميّتها الاستراتيجيّة في نظام مملكته.

سبى الخلعاء معظم فتيات القرية الشقيّات وساقوهن شطر الغابة الموحوشة»[19].

وهكذا يجعل عبد الملك من القرية مكانًا للدمار والخراب، تشوبه لحظات الألم والحزن، يندرج ضمنه التقابل بين فعل العنف الممثل في فعل الهجوم، والاقتحام والسطو، والتدمير، ثم السبيّ كحدث طارئ ومفاجئ غير متوقع لدى أهل القرية، وبين فعل الطمأنينة والهدوء

والأمن، الممثل في خلو "القرية" من فرقة الجيش الملكيّ وبساطة العيش، ويتحول «المكان عن طبيعته التي وجد من أجلها وهي حماية من يسكنه»[20] إلى فضاء مأساويّ يسوده العنف، والخوف والرعب، وترتسم عبر أرجائه صور الموت، والاغتصاب والنهب والسبيّ.

وتتوسع المأساة أكثر بتجاهل الحاكم، وتصبح مكانًا مستباحًا جراء ضعف دفاع أهل القرية «فشل أهل القرية في القضاء على عصابة الخلعاء التي كان يقودها الوحش الرهيب وقد تكاثر عددها وعظم خطرها. على الرغم من محاولات أهل القريّة المتكررة في فعل ذلك.»[21]

وبالتالي يتمّ اختراق فضاء القرية الآمن بالقوة، ثمّ بالتدمير والتخريب، نظرًا لافتقاد أهل القرية عوامل الحمايّة والأمن حيث يصير وجودهم مهددًا بالخطر رغم محاولتهم تحصين المكان، والدفاع عنه باعتباره «المعطى المكانّي المحوريّ»[22] في مستوى وعيّهم، وجوهر كينونتهم.

وبذلك يتشكل لنا هذا المربع السيميائي المبنيّ على مجموعة من التقابلات المرتبطة مع بعضها البعض وفق علاقات ذات دلالات مختلفة مؤسسة على مبدأ الإثبات والنفي.

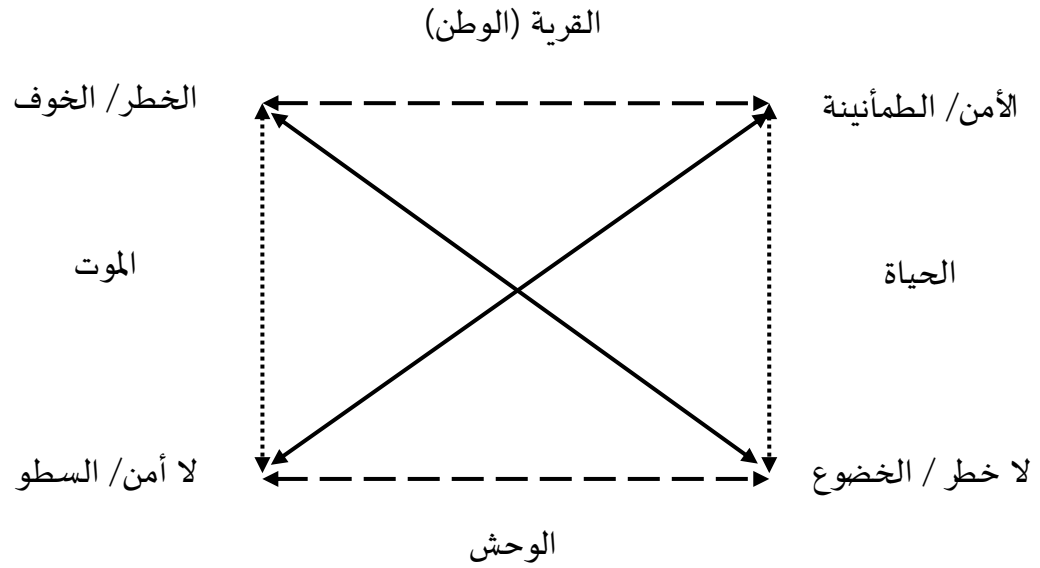


وفق هذا المنظور يتبين أن عبد الملك مرتاض استحضر القرية بصورة (الوطن) المهدد بالسقوط في قبضة الوحش الرهيب المتميز بالنزعة الاستدماريّة، والتسلط، والجبروت المسيطر على زمام القوى الأيديولوجيّة والمتحكم في ثروات القرى وخيراتها، والمهيمن على مقاليد السلطة والنفوذ.

وقد كانت القرية من قبل مكانا مقدسًا آمنًا يتميز بالسكون والطمأنينة، سكانها بسطاء مسالمون، لا خبرة لهم بالقتال، يعيشون في أمن وسلام تحت كنف الملك الجائر، وبظهور الوحش الرهيب نجد تغير موازين القوى الأيديولوجيّة، وبداية الصراع بين هاتين القوتين وذلك

عن طريق شنّ الوحش الرهيب هجمات متتالية على أهل القرى، والسطو على ممتلكاتهم، وتدمير قراهم في ظلّ غياب النظام الحاكم.

وبالتالي نلحظ سقوط قراهم الواحدة تلو الأخرى، لأنّ الوحش الرهيب لم يعدْ يكتفي بالسطو على قرية واحدة، بل في كلّ مرة يمدّ «عينيه إلى قرية أخرى مجاورة. أمر أصحابه الخلعاء بالانقضاض عليها انقضاضًا، في ليلة واحدة وبالسرعة المذهلة، وبالشراسة العارمة، أمرهم بأن يعثوا في القرية المهاجم أهلها فسادًا مريعًا. استولوا على كلّ شيء فتركوا القرية قاعًا صفصفًا، وخرابًا يبابًا، أصبحت القرية على غير ما باتت عليه. حاول ملك الجزيرة الغربيّة أن يحارب الوحش وعصابته فلم يفلح جنوده في ذلك».[23]

وفي المُقابل نجد نظام الملك الجائر يتهاوى وتضعف سلطته في ظلّ هذا الصراع الأيديولوجي ويصبح أهل القرى في صورة المستسلم الخاضع والراضخ لجبروت الوحش الرهيب ، تتسم شخصيتهم بالضعف و هذا نظرًا لعدم خبرتهم بالقتال، لذا لم يكن دفاعهم في مستوى قوة عصابة الوحش الرهيب، وما يُثير علامات الاستفهام في رواية( الملحمة) هو غياب العُمق الحضاري لأيديولوجيّة الوحش الرهيب، وقيامها على مبدأ الغاب المبني على عاملي السطو والاختطاف الذين كانا لهما الدور البارز في تصدر هذه القوة وزعامتها للجزيرة الغربيّة العامرة(أسبانيا) نظرًا لغياب النموذج المُنافس.

**علاقات المربع السيميائي:**

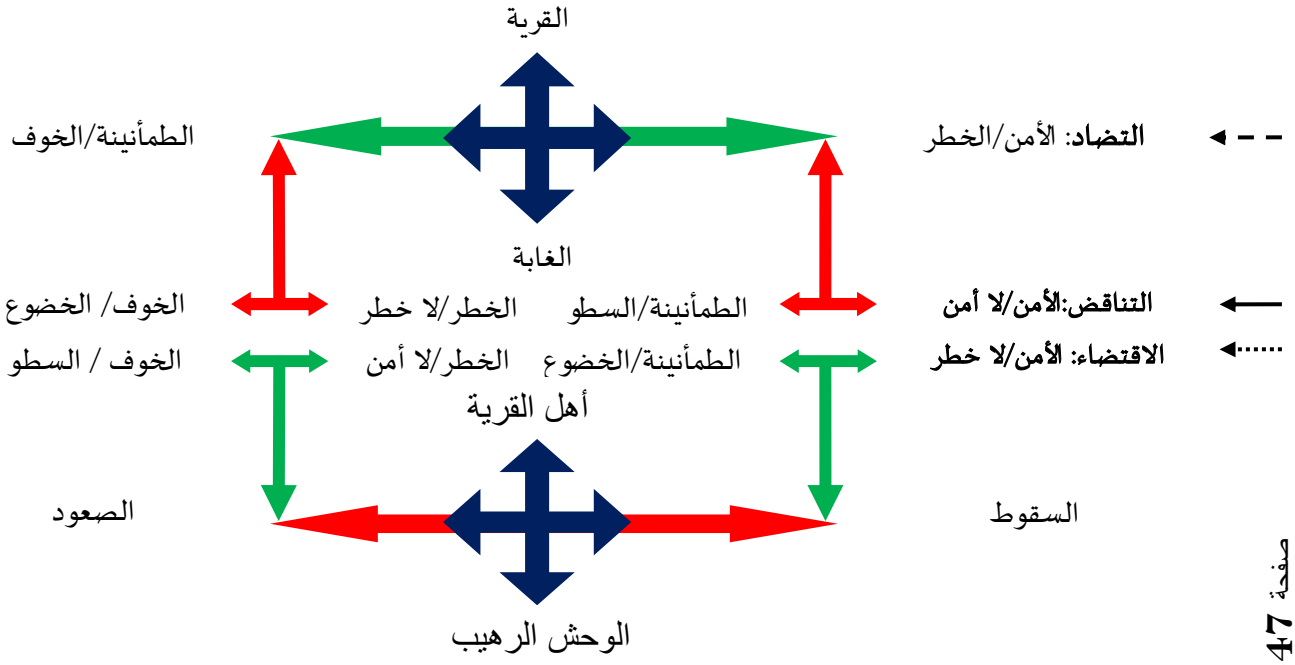

انطلاقًا مما سبق نلحظ أنّ عبد الملك مرتاض على لسان الراوية (الأمّ زينب) لا يكتفي بتعريّة العنف المسلط على أهل القرية بقدر ما يكشف عن وحشيّة الوحش الرهيب وعصابته، ويفضح النظام الحاكم، ويكشف عجزه في توفير الأمن لرعيّته، معلنًا بذلك عن بداية سقوطه، وفقدان مركزه السلطويّ، ليضعنا أمام قوة أيديولوجيّة جديدة صاعدة، ينتهي إليها الحكم ويصير بين يديها، «وشيئًا فشيئًا، وفي بضع سنوات فقط استطاع الوحش الرهيب وخلعاؤه أن يستولوا على مملكة بلاد الجزيرة الغربيّة العامرة، وأنْ يرثوا كلّ مقومات الدولة منها».[24]

فالهدف السياسيّ هو الذي يقف خلف نهب القرى والسطو عليها، وهو الذي يدفع إلى التدمير والتخريب والقتل، وذلك بتشكيل القرية كمكان معزول يؤطر فيه لحدث العنف والاختطاف ضمن حيز ضيق مغلق، وذلك بسلب خاصيّة الأمن والطمأنينة منه، وجعله مكانًا للسقوط وضياع السلطة وذلك باعتلاء الوحش الرهيب كرسيّ العرش إذْ يعلن لخلعائه عن مشاريعه المستقبليّة: «وهو يقول: أنَى لنا أيّه الخلعاء الأكارم أنْ أخرج بكم من هذه الغابة الموحوشة والضرب في الأرض، ابتغاء اكتساب الرزق وبلوغ المجد. ولتكن قرية أمّي بمن فيها، فهي فاتحة أعمالنا العظيمة».[25]

وليس هذا فحسب بل نجد عبد الملك مرتاض يضعنا أمام فعل السطو في سياق سياسيّ له أهدافه المعلنة بغية هيكلة صرح الاستدمار عن طريق الهيمنة والتوسع، وذلك باستبدال مبادئ احترام نظام سيادة الملك الجائر إلى إدامة الفوضى والخراب في القرى بالاعتماد على مبدأ اللادولة وذلك من خلال بسط الوحش الرهيب نفوذه وهيمنته على كيان القرى والنظام الحاكم بنشر الخوف والرعب فيها، باختراق نقاط الضعف في السلطة عن طريق القوة والعنف والمباغتة، وذلك من خلال إسقاط القرى ونهب خيراتها من أجل السيطرة على مقاليد السلطة بتطبيق فعل التدمير والتخريب

والإفساد والتمرد على النظام الحاكم بعد أنْ «خلعوا العَذارَ وانهمكوا في الغيّ معلنين التمرد والعصيان، كونوا شبه دويلة في الغابة». [26]

كما نجد أنّ عبد الملك مرتاض جعل من التمرد العامل الأساسيّ في هيكلة صرح هذه الأيديولوجيا الجديدة انطلاقًا من القرية الغابيّة، التي تمّ فيها ميلاد جيل جديد بلا هوية، وقوة مناهضة للنظام ذات طبع حيوانّي، خالٍ من القيم والأخلاق الساميّة «كان الخلعاء لا يزالون يختطفون الفتيات من القرى المجاورة التي أمست تحت سلطانهم. استأثر كلّ خليع بفتاة يضاجعها بمثابة الزوج الشرعيّة، تكاثر النسل بفعل الزنا في أكواخ الغابة... ملأ أطفالهم الغابة كما تملؤها أجراء الأرانب والوحوش الأخرى».[27]

ورغم البؤس الذي يعيشه المكان "القرية" فإنّنا نلحظ أنّ فعل الاختطاف شكل تدنيسًا «لشرف البلدة أو القرية، وتعبير عن الحقد والخيانة»[28]، إنّه إشارة وتحديد لهوية الوحش وعصابته المنتمين إلى الغابة والبدائيّة، وتأكيد على عزلة القرى وضعف دفاعها، وقوة الوحش وخلعائه.

كما تبدوا فكرة اختطاف المرأة واغتصابها «شكلاً من أشكال التعبير عن العنف الاستعماريّ»[30] في مرحلة نموه، وبدايته، واستفزاز لذوات الفتيات وإزهاق لسعادتهن، لأنّ «الاغتصاب يوازي الموت»[29] ولا فرق بين الموت والاغتصاب، ما دامت المعاناة مستمرة، حيث استطاع الكاتب تصوير لوحة إنسانية معبرة عن مأساتهن.

فضلاً عن ذلك فإنّ الفتيات المختطفات هن رمز لشرف القرية، واغتصابهم يعني تدنيس للقرية ولمملكة الجزيرة الغربيّة العامرة (أسبانيا)، واغتصاب للأرض والنظام السلطويّ، وبداية عهد جديد حيث يتوغل هذا التمرد ليطال فضاء القصر، وبالتالي يحتدم الصراع بين هاتين القوتين الأيديولوجيتين من أجل السلطة، ليكون النصر في الأخير للوحش الرهيب الذي استطاع بفضل قوته ووحشيّته أخذ مقاليد الحكم من الملك الجائر والقضاء عليه وعلى أنظمته الديكتاتوريّة بصورة نهائيّة ممررًا بذلك رؤاه الاستدماريّة النابعة من نظام الغاب حيث «نصّب الوحش الرهيب خلعاؤه ملكًا على الجزيرة الغربيّة العامرة، محلّ الملك الجائر المقتول، وأطلقوا عليه لقب "الوحش الرهيب" لأنّه لم يكن له اسم أصلًا»[31]

وبذلك استطاعت هذه القوة الأيديولوجيّة بقيادة الوحش الرهيب سحق النظام الملكي وتحطيم قانون الجزيرة الغربيّة العامرة، والسيطرة على نظام الحكم وذلك بتكريس «سلطة القوة وعنفها، ينتزع من الإنسان إنسانيّته، ويطلق العنان للعدوانيّة الحيوانيّة الكامنة فيه»[32] للتملك والانفراد مستمدة سطوتها « لا من وجود الدولة، بل من انعدامها فهو اللا-دولة واللا-وطن وهو حقّ القوة لا قوة الحقّ»[33] مزلزلة بذلك ركائز السلطة، محطمةً دعائمها وبالتالي تعلو هذه القوة الصاعدة على جسد القرية المتهاوي، والمتهالك، لبناء مملكة جديدة على أنقاذ القرى، والمملكة السابقة بتبني رؤى استدماريّة معادية للشرق «وإنّه لموقف غريب، يا أولاد، حقًا، أنْ يوصي ملك محتضر من طعنه وأزال *"من حيث المحتوى (المعدات النظرية والمنهجية الثقيلة، أو عرض النتائج الجديدة أو التوليفات النقدية لحالة المعرفة في مجال معين من المعرفة) وشكلها (أهمية الملاحظات النصية، والمراجع، والملاحق، الجداول والرسوم البيانية واستخدام أسلوب غير شخصي واستخدام مفردات متخصصة). من خلال حديثه، يوضح الباحث أنه لم يدمج فقط المعرفة في مجاله ،"...*

[1]- تهميش آلي آخر المقال.

ملكه بأنْ يتابع مهمّته في الغزو والعدوان. لم يوص الملك الجائر الوحش الرهيب بأولاده ولا بأزواجه ولكنّه أوصاه فقط بأنْ يتابع غزوه، فيسارع إلى الشرق الساحر ليُخرس أصوات المؤذنين!»[34]

وبذلك تصبح القرية رمزًا للوطن تنبض بالحياة والخصب والنماء، فيها وجد السكان ضالتهم من الاستقرار، والراحة، والأمن، والسكينة، والطمأنينة، وبمجرد أنْ يتخلى حكامها عنها ويكثر فسادهم وظلمهم واستبدادهم، إلاّ وتجدها تصبح نقطة ضعف يسهل اختراقها، وانتهاكها من طرف العدو الذي يستبيح حرماتها ويغتصب أرضها ونساءها، وذلك بنشر الرعب والخوف بين قاطنيها، وجعل فضائها المكانيّ عرضة للسرقة والسطو والنهب والتدمير والتخريب والموت، بغية التوسع والاستيطان لامتلاك ثرواتها.

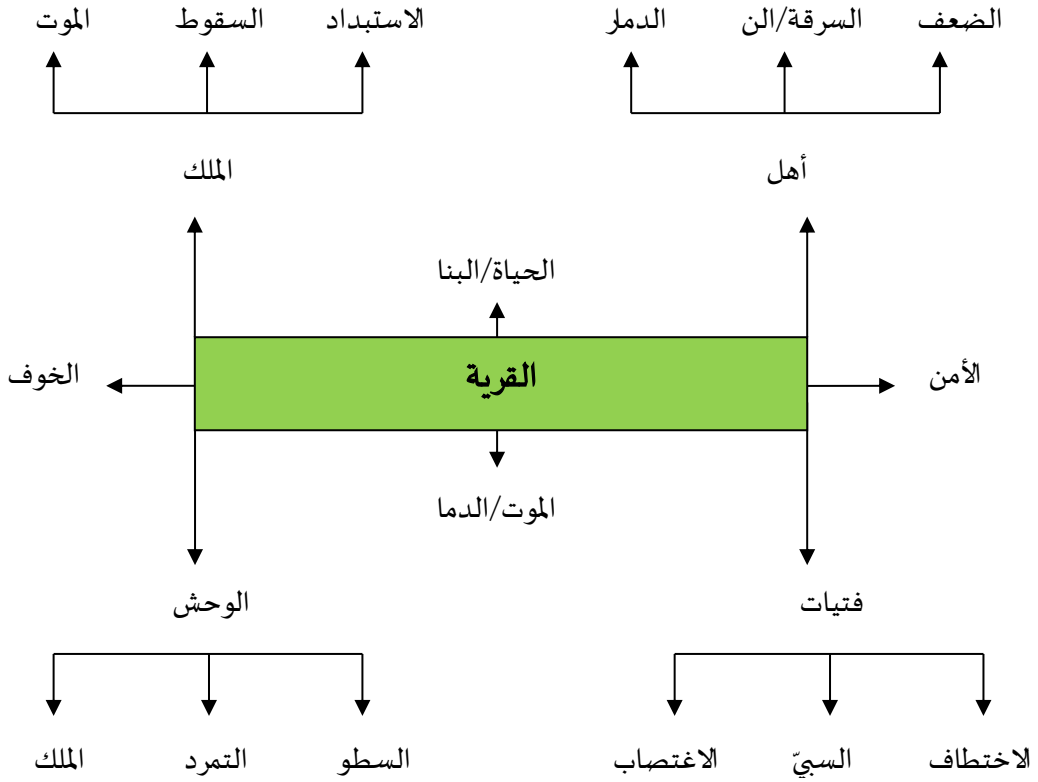


**الوظيفيّة الدلاليّة لبنيّة القريّة السرديّة**

وهكذا تتجاوز القرية صورتها المكانيّة الواقعيّة إلى معطى أيديولوجيّ، حيث شكل عبد الملك مرتاض منها صورة فنيّة مميزة، تؤطر لاحتلال المكان وسيادته، مسقطًا بذلك اللثام على الصراعات الأيديولوجيّة داخل السلطة، مبرزًا واقعها المشوب بالظلم والاستبداد، كاشفًا نقاط ضعف أنظمتها وفسادها، مبينًا إهمالها وتقصيرها في حقّ مواطنيها، كما نجده يكشف عن

مشاهد العنف المتصاعد ومصادره الكامنة في القوى الاستدماريّة المناهضة للنظام والسلطة المبنيّة على الفرديّة، والانتهازيّة.

كما نجد عبد الملك مرتاض استطاع هيكلة صرح الاستدمار وفق رؤية أيديولوجيّة مبنية على الأحادية القطبيّة لبيان مدى خطورته على العالم العربيّ والإسلاميّ الذي سيكون لقمة صائغة في قبضته فيما بعد، حيث سيحتدم هذا الصراع الإيديولوجيّ بين الوحش (الاستدمار) وأهل المدينة الفاضلة، ثم يزحف إلى المحروسة المحميّة البيضاء (الجزائر).

وبذلك يتشكل لنا هذا المربع السيميائي المبنيّ على مجموعة من التقابلات المرتبطة مع بعضها البعض وفق علاقات ذات دلالات مختلفة مؤسسة على مبدأ الإثبات والنفي.

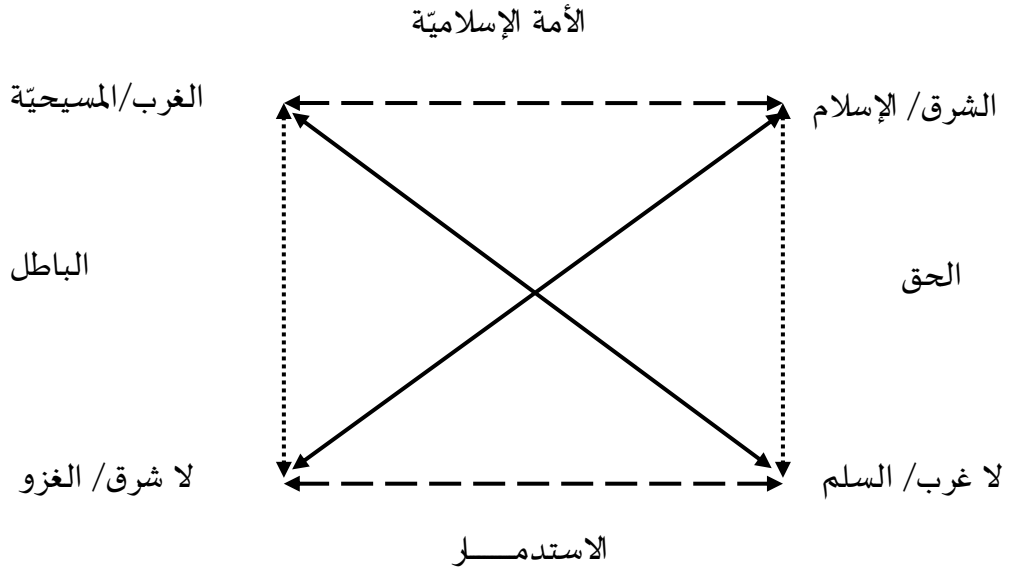


**في** ضوء هذه الرؤية تتكاثف الملفوظات عبر بنية السرد لتطرح فكرة الحروب الصليبيّة برؤية جديدة، وتبئر إلى احتلال المكان، الذي تتشكل فيه بؤرة الصراع والصدام بين الأيديولوجيّات:

- الشرق ذو الديانة الإسلاميّة.
- الغرب المعتنق الديانة المسيحيّة.

حيث تظهر صورة الغرب بصورة الغازي، والمعتدي، المتحكم في زمام القوى الأيديولوجيّة، فيما يظهر الشرق بصورة المغلوب على أمره، الذي تمّ الاعتداء على وطنه، وضُيق الخناق عليه، وسقطت مدنه نتيجة مسالمته، وشنت ضدّه حرب هوجاء بحجة القضاء على أنظمته الديكتاتوريّة، وفي حقيقتها حرب صليبيّة، الهدف منها السيطرة على العالم والتحكم في ثرواته وخيراته» ولكن الفقر وفراغ الخزينة في الجزيرة الغربيّة كان يحملان الوحش الرهيب

على التماس مصادر الرزق في الشرق الساحر(...) ثمّ للارتزاق بخيرات أرض المحروسة المحميّة البيضاء وخصوصًا مدنها الساحليّة الكبرى مثل مدينة العنّاب ومدينة المرجان، ومدينة الجمال، ومدينة العلم، ومدينة الغنائم، بالإضافة إلى المدينة الفاضلة التي كان اتخذها له قاعدة لينطلق منها شطر الشرق لضرب المدن الأخرى »[35]

وبما أنّ العين الروائيّة الحاذقة لا تملك وهي تجوس معترك الحياة، إلّا أن تعريّ الواقع وتكشف سلبيّاته وتعايش الأحداث والوقائع بطريقة فنيّة مميزة، إذ يكشف عبد الملك مرتاض عن أبعاد المؤامرة الخبيثة التي تحاك ضدّ الأمة العربيّة والإسلاميّة، والدور السلبيّ الذي يلعبه الاستدمار الغربي في هدم أواصرها ودعائمها، وذلك عن طريق تدمير أنظمتها وإضعافها، وتخريب علاقتها الداخليّة والخارجيّة وطمس هويتها وديانتها الإسلاميّة والقضاء عليها.

**علاقات المربع السيميائي:**

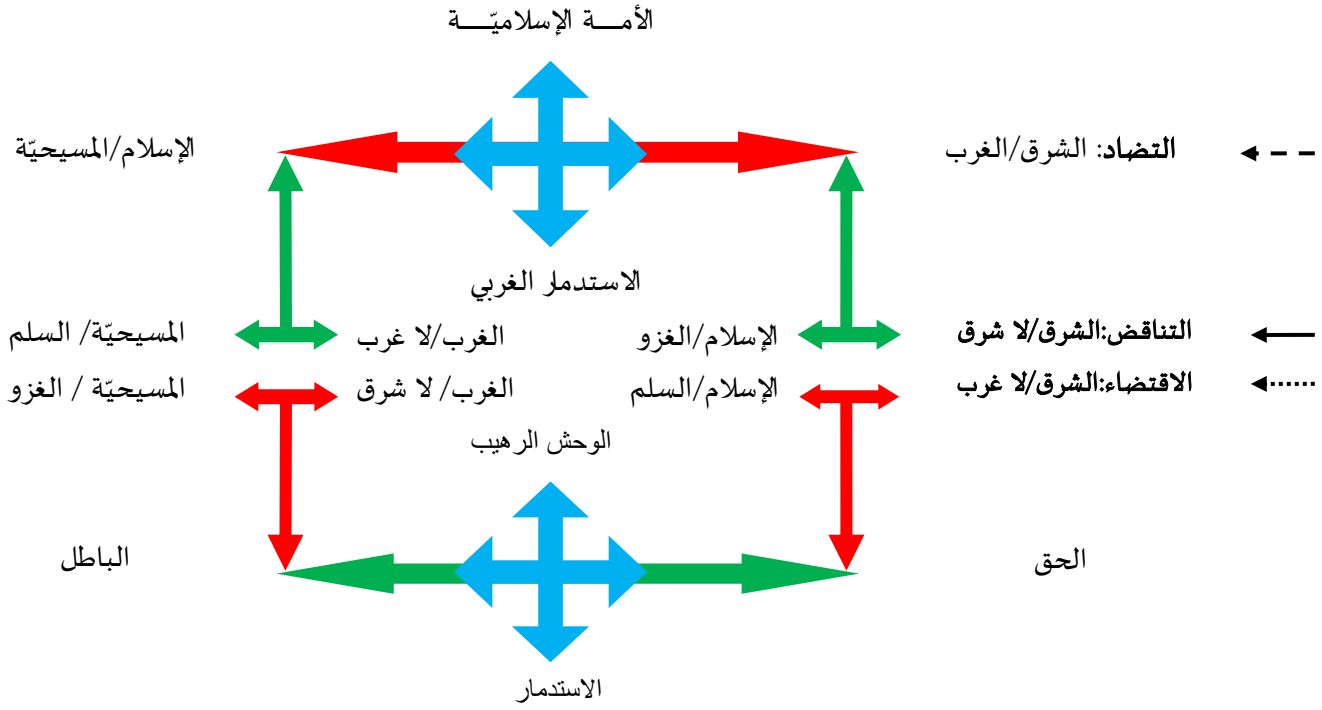


بناء على ما سبق نلحظ أنّ عبد الملك مرتاض استطاع عبر بنية الخطاب السرديّ بيان مدى خطورة الصراع الإيديولوجيّ الدائر بين الشرق والغرب في أقصى درجاته المبنيّ على مبدأ الغزو والاستدمار، فاتحًا بذلك الباب على عالم جديد، يتميز بالصبغة التوسعيّة، والنزعة العقائديّة، يتمركز الظلم والاضطهاد والقهر بين ثناياه، ويختزن في داخله كلّ أنواع الكراهيّة

والحقد نحو العرب المسلمين تسعى شخصياته إلى امتلاك الشرق واستعباد سكانه عن طريق السلطة القمعيّة واتباع الباطل.

وبذلك تصبح القرية بوابة تنفتح على غزو المكان واحتلال المدن الجزائريّة، حيث تسعى فيه الذات الغربيّة إلى دحض العقيدة الإسلاميّة، والقضاء عليها، والاستيلاء على الشرق بتقويض أراضيه واستيطانها، من خلال تمزيق جسد الأمة العربيّة وتدميرها، وضرب دعائمها عن طريق غزوها، وإلقاء بذور الأحقاد والكراهيّة والفوضى في أنحائها بهدف السيطرة عليها والتحكم في العالم.

من هذا المنظور نستخلص أنّ عبد الملك مرتاض وضعنا أمام (قرية) هي (المملكة) وجعل سقوطها وانهيارها سقوطًا للمملكة وضياعها، إنّها تعتبر البؤرة المكانيّة والمركزيّة للتغيير والتحول والانفتاح على الأمكنة الأخرى: القصر، المدينة، ومن ثمّ غزو المكان واحتلاله لبناء هرم سلطويّ جديد والهيكلة للوجود الاستدماري الغربي أحاديّ القطبيّة.

**خاتمة:**

مما سبق نستخلص أنّ مفهوم المكان عند الغربيين اختلف من ناقد إلى آخر، فمنهم من عدّه المساحة المكانيّة التي يشتغل فيها السرد، ورأى البعض الآخر أنّ هناك علاقة وطيدة تجمع بين الإنسان والمكان فيما انصبت جهود البعض الآخر على الدلالات الثقافيّة والأبعاد الحضاريّة للمكان.

أما مصطلح "المكان" عند العرب فنجد تداخل المفاهيم وتعددها في الممارسة النقديّة تبعًا لمنظورات استعماله، حيث وظفت ثلاث مصطلحات هي: المكان، الفضاء، الحيز، حيث اختار الناقد عبد الملك مرتاض مصطلح "الحيز" باعتباره المصطلح الأنسب للمصطلحين الفرنسيّ والإنجليزيّ [Espace/ Space]، وهذا نظرًا لقدرته على احتواء الحمولة المعرفيّة والمفهوميّة مقارنة بمصطلحي: المكان،الفضاء. .

كما نجد أنّ عبد الملك مرتاض وظف تيمة القرية في رواية (الملحمة) كبؤرة مركزيّة لتولد الصراع الأيديولوجيّ والعقائدي بين ثلاث قوى أيديولوجيّة:

- الوحش الرهيب وخلعاؤه.
- سكان القرية/ الملك الجائر.
- الشرق/أهل المدينة الفاضلة.

وطرح قضية احتلال المكان بغية التأسيس لهوية المكان والتأصيل له، وذلك عن طريق جعل القرية فضاء للسطو والنهب والخضوع، ومكانًا للسقوط وضياع السلطة في يد الوحش

الرهيب (الاستدمار) جراء ضعف النظام الحاكم واستصغاره للمكان: القرية، متجاوزًا بذلك صورتها المكانيّة الواقعيّة إلى معطى سياسيّ أيديولوجيّ.

كما استطاع الكاتب عبر بنية الخطاب السردي للرواية تشكيل صورة فنيّة مميزة للقرية بإضفاء ملامح البساطة والهدوء والسكينة عليها، وجعلها رمزًا للوطن، وفضاء للكفاح والنضال والتحرر ضد الباطل والاستدمار.

وعمل على هيكلة أطروحة تصون الوطن، وتضمن بناء الأمة الإسلاميّة وتحافظ على سلامتها من الاستدمار، وذلك بإبراز قضية الصراع الأيديولوجي الدائر بين: الشرق /الغرب، المسيحيّة/الإسلام، باعتباره قضية تاريخيّة ومسألة أيديولوجيّة جد خطيرة تهدد كيان الوطن العربي والإسلامي، وللتعبير عن عمق المأساة التي تعاني منها الأمة الإسلاميّة جراء الآخر الذي يتربص بها من كلّ جانب، مسلطًا عليها كلّ أشكال الهيمنة الأيديولوجيّة والقوة، محكمًا قبضته عليها، رافضًا بذلك فكرة التعايش السلمي المؤسسة على الضعف والتهاون والخضوع والاستكانة للآخر ولتحذير القارئ والأمة الإسلاميّة من خطورة الاستدمار الصليبي الذي سيطر على نظامها.

---

[1] نفلة حسن أحمد، التحليل السيميائي للفن الروائي، دراسة تطبيقية لرواية الزيني بركات، دار الكتب والوثائق القومية الاسكندرية د ط، 2012، ص: 198/197.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة مكن، ج 5، ص: 114

[3] الزبيديّ، تاج العروس، تح: علي بشيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، مج 18، 1994، ص: 488

[4] ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربية: تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي، دار الرائد للكتاب الجزائر، ط: 1، 2005، ص 217/216

[5] عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرواية،ص: 186

[6] ينظر: جيرار جنيت وآخرون الفضاء الروائيّ،ص:137.

[7] ينظر: حميد حميداني، بنية النص السرديّ من منظور النقد الأدبيّ، المركز الثقافيّ الأدبيّ للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء بيروت (لبنان)، ط: 1، 2003، ص: 54

[8] غادة الإمام، غاستنباشلار، جماليات الصورة، التنوير للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، ط:1 ، 2010، ص:290.

[*] **الدراسات العربيّة حول المكان**

يرى حميد الحمداني أنّ الفضاء في الرواية أوسع وأشمل من المكان، إنّه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائيّة المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تمّ تصويرها بشكل مباشر أو تلك التي تدرك

بالضرورة، و بطريقة ضمنية مع كلّ حركة حكائيّة ثمّ إنّ الخط التطوري الزمني ضروري لإدراك فضائيّة الرواية بخلاف المكان المحدد، فإدراكه ليس مشروطًا بالسيرورة الزمنيّة للقصة ينظر: إبراهيم عباس، الرواية المغاربيّة،ص:219

أما محمد بنيس فيرى أنّ المكان منفصل عن الفضاء، وأنّه سبب في وضع الفضاء باعتبار أنّ المكان غير الفضاء، لأنّه منحصر في الموقع الجغرافي في حين أنّ الفضاء الفضاء بحاجة على الدوام للمكان لأنّ فيه تتلاقى الأبعاد وتتماهى المسافات ينظر: حسن نجمي، شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربيّة، مركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 2000 ص:42.

[9]عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص :185

[10] عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السرديّ معالجة تحليليّة سيمائيّة مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعيّة (بن عكنون) الجزائر، د ط، 1995، ص: 102

[11] ينظر: عبد الملك مرتاض، أي دراسة سيمائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعيّة (بن عكنون) الجزائر، 1982، ص: 106

[12] عبد الرحمن مجيد محمود الجبوري، بناء الرواية،ص: 63

[13] نفلة حسن، التحليل السيمائي للفن الروائي، دراسة تطبيقية لرواية الزيني بركات دار الكتب والوثائق القوميّة، كركوك د ط، 2012، ص: 196

[14] المرجع نفسه، ص196.

*القرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وهي تتكون من المساكن، والأبنيّة والضياع إنّها عبارة عن تجمع سكانيّ في المنطقة الريفيّة تكون فيه الأبنيّة بسيطة، متجاورة مع بعضها البعض، تتوزع على الضياع، والمداشر، تتميز بصغر المساحة عكس المدينة ينظر: يادكار لطيف الشهرزوري، جماليات التلقي في السرد القرآنّي، دار الزمان، دمشق، سوريا، ط1، 2010، ص:206.

[15] الشريف حبيلة، الرواية والعنف: دراسة سوسيونصيّة في الرواية الجزائريّة المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن،د ط، 2010 ص:49.

[16] المرجع نفسه، ص:49.

[17] عبد الرحمن محمد الجبوري، بناء الرواية عند حسن مطلك: دراسة دلاليّة، ص: 65

[18] الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص: 27

[19] عبد الملك مرتاض، م س، ص: 87

[20] الشريف حبيلة، م س، ص: 29

[21] عبد الملك مرتاض، م س، ص: 84

[22] الشريف حبيلة، م س، ص: 72

[23] عبد المالك مرتاض، م س، ص: 88

[24] المصدر نفسه، ص: 89

[25] المصدر نفسه، ص: 86

[26]المصدر السابق، ص: 85

[27] المصدر نفسه، ص: 85

[28] علال سنقوقة، المتخيل والسلطة، ص: 102

[30] المرجع نفسه، ص: 100

[29] المرجع نفسه، ص:102.

[31] عبد الملك مرتاض، م س، ص: 91

[32] الشريف حبيلة، الرواية والعنف، ص: 69

[33] عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربيّة الصورة والدلالة، دار محمد علي للنشر، تونس، ط: 1 2003، ص:159.

[34] م ن، ص: 90/89

[35] المصدر السابق، ص:147.

## المراجع:


أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مادة دلل مج:05 دار صادر، بيروت (لبنان) ، ط3.

الزبيديّ، تاج العروس، تح: على بشيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، مج 1994،

إبراهيم عباس، الرواية المغاربيّة، تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي، دار الرائد للكتاب،الجزائر، ط: 1، 2005.

حسن نجمي، شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربيّة، مركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط:1 ، 2000 .

حميد حميداني، بنية النص السرديّ من منظور النقد الأدبّي، المركز الثقافيّ الأدبّي للطباعة والنشر والتوزيع الدار البيضاء بيروت (لبنان)، ط: 1، 2003.

الشريف حبيلة، الرواية والعنف: دراسة سوسيونصيّة في الرواية الجزائريّة المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن،د ط، 2010 .

عبد الرحمن مجيد محمود الجبوري، بناء الرواية عند حسن مطلك: دراسة دلاليّة، المكتب الجامعي الحديث الاسكندريّة (مصر)، دط،2012.

عبد الملك مرتاض الأعمال السردية الكاملة ثلاثية الجزائر، منشورات مختبر السرد العربي قسنطينة د:ط (2012)

عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرواية، بحث في تقنيات السرد" دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، دط دت.

عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السرديّ معالجة تحليليّة سيمائيّة مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعيّة (بن عكنون) الجزائر، د ط،1995.

عبد الصمد زايد، المكان في الرواية العربيّة الصورة والدلالة، دار محمد علي للنشر، تونس ط: 1، 2003

غادة الإمام، غاستن باشلار، جماليات الصورة، التنوير للطباعة والنشر، بيروت (لبنان) ط:1 ،2010.

نفلة حسن، التحليل السيمائي للفن الروائي، دراسة تطبيقيّة لرواية الزيني بركات دار الكتب والوثائق القوميّة كركوك، الإسكندرية، د ط.

- جيرار جنيت وآخرون الفضاء الروائيّ،تر عبد الرحيم حزل ، إفريقيا الشرق، دار البيضاء (المغرب) بيروت (لبنان) دط،2002


## لنقتبس من المؤلف:


ناضر فاطمة الزهرة القرية فضاء وطن ومعتركُ إيديولوجيا في رواية "الملحمة" لعبد الملك مرتاض »، المجلد 06، عدد خاص، ص240-256 https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/48